ـمران» سلامٌ وتقوى

بعضاً، على ضفتي المعركة، من أكثر المشاهد «السوريالية» هناك. بعضهم تربوا سوياً، وكانوا أصدقاء طفولة، لكن «على كبر» تتغيّر الأشياء بفعل جرثومة اسمها الطائفية. صداقات متقطعة تجمعهم، يقطعها مرّة تفجير مسجدي السلام والتقوى في عمق المدينة، وأخرى انتحاري في الجبل، وبينهما جولات من الضحايا. لكن لتعود المقاهي الفقيرة، مثلهم، وتجمعهم، إنما مع اتساع في فجوة التنافر مرّة تلو أخرى.

المنقلة

هكذا، وليس على سبيل «الكليشيهات» التقليدية، كان يمكنك أن تسمع في مقهى أبو عمران، بين الحاضرين، اسماء كعلي وعمر وجورج. الانتحاريّان، الآتيان من الجوار، القريب جدّاً، أصابا كلّ هذه الاسماء داخل المقهى. ثمّة إجماع على هذه الأجواء، الوطنية قل، في تلك الزوايا. المقاهي الشعبية في لبنان، التي تضاءلت خلال السنوات الأخيرة، تجد فيها من يلعب «الطاولة» أو «الداما» دوماً. لكن في «أبو عمران» وجاره «المجذوب» لعبة أخرى. إنها «المنقلة». هي الأشهر هناك. كثيرون في لبنان لا يعرفونها، ولكنها، على امتداد الساحل السوري، وصولاً إلى شمال لبنان، هي أشهر من أن تُعرّف. طاولة خشبية، فيها بعض الحفر، إلى جانب الكثير من الحصى. لعبة تراثية بامتياز والكبار يعرفونها جيّداً.

«أبو الكفاح» السبعيني، الذي ابيضّت لحيته، أحد هؤلاء. ذات مرّة التقيناه في المقهى، بعيد إحدى المعارك، وكان يُصرّ على تكرار عبارة: «يلعن أبو الطائفية». خبر تاريخ المنطقة، وما مرّ عليها، ولا يزال يذكر بعض الأطفال الذين ولدوا أمامه وأصبحوا اليوم شبّاناً، في جبل محسن والتبّانة والمحيط على حدّ سواء. لم يكن يستطيع أن يُصدّق أن الشاب فلان، الذي حمله في قماطه صغيراً، يأتي ليطلق عليه النار. يعرف الجميع باسمائهم، لأن «حارتنا ضيّقة». لم يُصَب «أبو الكفاح» في التفجير الأخير، لا يزال حيّاً، لهذا سيكون عليه عيش «مرارات» إضافية لاحقاً، ورؤية من رآهم أطفالاً... لكن بـ«ثوب انتحاري» هذه المرّة.

واستراحة للجيش

ذلك المقهى، وعمره أكثر من 20 عاماً، كان يفتح ليلاً نهاراً. لم يغلق بابه حتى أيام المعارك. واستمر في تقديم نرجيلة بـ«الراس الجبلي». يُقال هناك إن لأهل الجبل شهرة في «تركيب» رأس نرجيلة بجودة عالية. كان هذا أحد الأسباب الإضافية التي تدفع بالآخرين، من الأحياء المجاورة، للمجيء ونفث الدخان. ذلك المقهى يرتاده عناصر الجيش اللبناني أيضاً. أثناء راحتهم، بعد ساعات الحرس، يأتون من نقاط تمركزهم في الجبل وخارجه للاسترخاء قليلاً. كانوا داخل المقهى، ليلة الانفجار، إلى قبل نحو ساعة من دويّه. من حُسن حظّهم. بعد الانفجار، وحتى اليوم التالي، كانت أكواب «المتّة» لا تزال على بعض الطاولات، لكنها أصبحت مطليّة بالدم. كذلك ورق اللعب الذي تناثر. يشتهرون هناك بلعبة ورق اسمها «مورتو». روّاد المقهى صنفان، منهم من يأخذ «النوبة» الصباحية ومنهم المسائية. من كبار السن، وممن يعودون من عملهم لقضاء ساعات قليلة قبل الذهاب إلى المنزل، فضلاً عن «العواطلية». هؤلاء الذين، كحال كثيرين من الشباب في لبنان، ضربتهم وتضربهم موجة البطالة. كل واحد منهم أصبحت زاويته في المقهى معروفة باسمه... وكذلك قهوته. حفظهم أبو عمران والمجذوب عن ظهر قلب. هذه ميزة، للمقاهي الشعبية، تفتقدها المقاهي الحديثة.

في حزيران العام الماضي ضرب انتحاري مقهى «أبو عساف» في منطقة الطيونة - الضاحية الجنوبية لبيروت. حكايات المقهى الشعبي، بين طيونة «أبو عساف» وجبل محسن «أبو عمران» تكاد تكون ذاتها. أسلوب عيش يتشابه إلى حد بعيد. حكايات ودّ ودردشة وتعارف ولعب ومناقشات وتمضية وقت واستراحة و«أخذ نفَس». ربما على أصحاب هذه المقاهي، وروّادها، أن يخشوا اليوم أكثر من ذي قبل... من دون أن يعني هذا ألا يستمروا بـ«ممارسة الحياة» كما هم، نكاية بالخوف، وبكل موزّعي البؤس والموت.

التدخين يقتل (مروان طحطح)

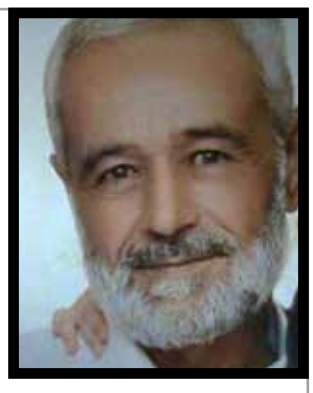

عيسى خضّور

استشهاديّ بين انتحاريين

قبل نحو سنتين، وبُعيد انتهاء إحدى جولات المعارك مع التبّانة بساعات قليلة، كان «أبو علي» يتحدّث إلى مراسل الصحيفة ضمن جولة ميدانية في شوارع جبل محسن. داخل مكتب بسيط، تابع لمحل ثياب، عند أوّل الجبل. حركة الناس في الخارج كانت لا تزال خفيفة. تحدّث في السياسة، الدين، الفلسفة، الإعلام، المجتمع وهموم منطقته و«كل أبناء طرابلس».

لم يكن أحد، من الذي قتلهم التفجير الانتحاري المزدوج، يستحق القتل، لكن عيسى خضّور، كان الخسارة الكبرى للجبل... وطرابلس. هو الحكيم صاحب «الكاريزما» والتأثير، والذي لعب، وكان يعوّل عليه أن يلعب، أدوار «العقلانية» بين أبناء المنطقتين. فعلها سابقاً أكثر من مرّة.

كان الجميع في الجبل يستمعون لرأيه، ويستشيرونه، حتى غدا «صوت العقل». هو الخسارة الكبرى، في ما حصل، وهو حتماً، الاستشهادي الوحيد تلك الليلة.

نحو 10 دقائق بين الانتحاري الأول والانتحاري الثاني، سمع الدوّي الأول، فترك منزله ونزل إلى المقهى، وراح يسعف الجرحى. يسمع «تكبير» الثاني، ويرى حركة مطلقه المشبوهة، فينقض عليه ويحتضنه... حتى الموت. نجا بذلك عشرات ممن كانوا يحتشدون، آخذاً بجسده أكثر الشظايا. شهد على ذلك عشرات من شهود العيان. الكهل المثقف، المقاوم العتيق، والد الأبناء السبعة، لم يكن ليُحب أن يُقتل، إن كان لا بد، إلا على يد «الإسرائيلي» الذي قاتله أيام الاحتلال. في ثمانينيات القرن الماضي، كان عضواً في منظمة العمل الشيوعي، ومن تلك «المنصّة الوطنية» قاتل العدو في بيروت ولحقه جنوباً. واجه «النزعة الانعزالية» لليمين اللبناني، في اقتحام شكّا، ونقل المناضل الطرابلسي الشهير خليل عكّاوي (أبو عربي) على كتفه مصاباً من أرض المعركة. هو ابن منطقة عكّار، لكنه عاش حياته في طرابلس، في جبل محسن تحديداً، قبل أن يكون الجبل منطقة لـ«الآخرين» في عيون بعض الطرابلسيين.

كان من الذين لا يملّون من ترديد لازمة «فلسطين». في شبابه عمل مع «حركة فتح» الفلسطينية. لبس «الكوفية» طويلاً، وتدرّب في مخيم البداوي، لا يُفرّق بين سني أو شيعي أو مسيحي أو... علوي. كثيرة هي البيوت، والمشاريع العمرانية، في طرابلس وزغرتا والمحيط، التي جبلَ «باطونها». كانت هذه مهنته لاحقاً، متعهّد ورش، والتي ظل يعمل بها حتى الأمس القريب.

من نكد الدهر أن تقضي عمرك مقاوماً للإسرائيلي، ثم مربيّاً لأبنائك وأبناء منطقتك، على العداء لإسرائيل، ونابذاً للطائفية تنظيراً وفعلاً، ثم تموت بفعل تطاير جسد شاب من أبناء منطقتك... انتحاراً. في مرحلة لاحقة أصبح لـ«أبو علي» توجهات إيمانية. لكن بقي على انفتاحه، تجاه الجميع، من دون التنكّر لماضيه.

أعجب كثيراً بتجربة حزب الله، من بعيد، ورغم «إيمانه» كان يوصي الجميع أن يصوّروا الحزب كـ«حركة تحرر وطني». يراه للجميع بلا استثناء.

من مهازل الدنيا في حروب الزواريب، التي تفصل الناس مذهبياً، خصوصاً الذين ما كان لهم يوماً أن يكونوا مذهبيين، أن يُقتل فيها أشخاص مثل عيسى خضّور.

محمد...